وسائل الإعلام
ودورها الثقافي والعقائدي

أنيس فهمي

ان الشعب العربي اليوم في اشد الحاجة للنهوض بنفسه في شتى المجالات والميادين بطريقة متوازية ، حتى يستطيع ان يبني مجتمعا ناهضا متكاملا تقوم العلاقات بين افراده على اسس متينة من القيم الوطنية والاخلاقية والحب والتعاون والتقارب في الاحساسات والتجانس في الاذواق والمشاعر والايمان بوحدة الهدف ووحدة المصير .

ومن اجل ذلك تقع على عاتق اجهزة الاعلام في وقتنا هذا مهمة اساسية وخطيرة ، بل لعلها اخطر مهمة على الاطلاق . ففي هذه الآونة التي يستفيق فيها الشعب العربي بعد نوم طويل عميق ، يحتاج هذا الشعب الوليد الى هواء نقي وتغذية جيدة تحتوي على نسب كافية متكاملة من مختلف المواد الاساسية اللازمة لنموه بمنتهى السرعة دون ان يصاب باي مرض من الامراض او العلل ، ودون ان ينتكس نموه ونضجه في اي ميدان من الميادين.

ان الراديو اسهل وارخص وابسط وسيلة للاتصال بالجماهير ، هذا بالاضافة الى انه يعتبر اقوى الاجهزة في عالمنا العربي على الرغم من منافسة التلفزيون القوية له . لقد انتشر الراديو اليوم في كل مكان ، كما ان اختراع الراديو الترانزستور ، الذي يتميز برخص اسعاره وقلة تكاليفه وسهولة حمله ونقله الى اي مكان ، قد اتاح الفرصة لكل مواطن ان يستمع الى الاذاعة المسموعة .

وقد دلت الاحصاءات على ان ٦٠ ٪ من الاخبار يحصل عليها الجمهور عن طريق الراديو ، ولذلك فان اهم واول عمل يقوم به ابطال الثورات هو الاستيلاء على محطة الاذاعة.

والاذاعة من اهم اسلحة التوجيه السياسي والدعاية العقائدية ، وقد كتبت جريدة « المانشستر غارديان » البريطانية في عام ١٩٥٧ بعد العدوان الثلاثي على مصر تقول : «ان هيئة الاذاعة البريطانية اضطرت الى زيادة عدد ساعات الارسال اليومي باللغة العربية الى تسع ساعات ونصف لمواجهة الدعاية المضادة لبريطانيا من بعض اذاعات الشرق الاوسط».

وقام الراديو بدور من اهم الادوار في معارك التحرير العربية المختلفة ، وقد ادى دوره بنفس القوة التي اداها بها اثناء حرب السويس ، مما دعا الدول الاستعمارية الى انشاء تسع اذاعات سرية كانت تذيع على موجات مختلفة .

من اجل ذلك يمكن القول بان الراديو اقوى وسائل الدعاية ، وخاصة في الدول التي تكثر فيها الاميـة والدول المسلوبة الحقوق والتي تكافح في سبيل استعادة حقوقها ، وفي حالات الدعوة لقضية معينة ومحاولة اقناع الرأي العام العالمي بها .

وبالاضافة الى الدور الخطير الذي يقوم به الراديو في تحرير الشعوب العربية ، فانه من اعظم الوسائل وارخصها وابسطها في نقل المعرفة والثقافة وربط الشعوب العربية ببعضها البعض وتقريب وجهات النظر بينها . ولا تقتصر هذه المهمة على الاماكن والبلاد القريبة بل تتعداها الى الاجزاء النائية وميادين القتال ، ولعل اقرب مثال يثب الى الذهن في هذا المجال هو الدور الذي لعبه الراديو الترانزستور في حرب اليمن .

ولم يهمل الراديو المسائل الداخلية بل ازداد اهتمامه بها بدرجة توازي اهتمامه بالميادين الخارجيـة . ففي نواحي الاعلام يذيع الراديو برامج اخبـارية عديدة ومتنوعة بقصد الاتصال بكافة المستويات بين المواطنين ، ومن ضمن هذه البرامج تمثيليات اجتماعية تعالج مشكلات الساعة ومدى تأثيرها على الحياة اليومية للفرد ، وبرامج تحليليـة يتولى فيها الخبراء والمختصون تحليل القضايا التي تهم الشعب وشرحها شرحا وافيا مبسطا ، كما توجد برامج تعتمد على المناقشة الحرة بين عدد من رجـال السياسة او المسؤولين او الدارسين المتخصصين لاحدى المشكلات التي تشغل بال النـاس . ومثل هذا البرنامج يهدف الى التوجيه والتثقيف بطريقة غير مباشرة تجذب انتباه المستمع وتثير فيه الرغبة في المعرفة .

اما من الوجهة الثقافية فقد كان على الراديو ان يحمل فوق كتفيه احمالا ثقيلة ، فان انتشار الجهل والتخلف (وهما من الرواسب الكريهة للاستعمار) قد وضعا على كاهل الراديو بالذات مهمة من اشق المهمات وهي رفع المستوى الثقافي للجماهير العربية ، ذلك لان الراديو كما قلنا اسرع الوسائل واسهلها وارخصها لتثقيف الجماهير . وقد بذل الراديو ، وخاصة في السنوات العشر الاخيرة ، جهوداً جبارة في هذا الميدان .

كانت قوة اذاعة القاهرة في عام ١٩٥٢ لا تتعدى ٧٢ كيلووات ، ولكن في نهاية عام ١٩٦٤ ستصل قوة ارسال محطات اذاعات الجمهورية العربية المتحدة الى ٥٠٠٠ كيلووات. وكان ترتيب محطة الاذاعة العربية في عام ١٩٥٩ رقم ٣٢ بين محطـات الاذاعة في العالم ، ثم قفزت الى المرتبة الثـانية في عام ١٩٦٢ ، ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح المحطة الاذاعية الاولى في العالم ، وسيصل صوتها الى جنوبي السودان وجنوبي اليمن ، كما ستغطي لاول مرة منطقة تونس والجزائر وليبيا. وقد وضعت خطة لتوفير انتاج اجهزة الراديو في جميع انحاء الجمهورية بحيث يملك كل مواطن جهازا للراديو . ولا شك في ان توفير اجهزة الراديو لاكبر عدد ممكن من المواطنين من اهم الخطوات في سبيل نشر الثقافة ورفع الوعي الوطني والاجتماعي والصحي والاخلاقي على كافة المستويات .

ولكي يضطلع الراديو بمهمته الثقـــافية تعددت وتنوعت البرامج التي تهدف الى رفع المستوى الثقافي ، سواء بطريق مباشر او غير مباشر . وكان من اهم الطرق المباشرة افتتاح البرنامج الثاني الثقافي في عام ١٩٥٧ . والمفروض ان البرنامج الثاني يخاطب صفوة المثقفين والمتعطشين الى دروب المعرفة والثقافة الرفيعة . ولتحقيق ذلك اشتملت برامجه على عرض الكتب العالمية المترجمة ومجلة اسبوعية للفنون واخرى للآداب وثالثـــة للعلوم ورابعة للاقتصاد ، وبرامج خاصة عن العلماء والادباء ورجال الفكر والفن في جميع انحاء العالم ، هذا بالاضافة الى اذاعة النص الكامل لمسرحية عالميـــة طويلة كل اسبوع ومسرحية او مسرحيتين قصيرتين من المسرحيات العالمية ايضا. زد على ذلك البرامج النقدية التي يتناول فيها كبار النقاد والدارسين الاعمال الادبية والفنية بالنقد والتحليل .

ومن اهم البرامج التي يذيعها البرنامج الثاني تلك الندوات التي يعقدهـــا رجال الفن والادب والفلسفة والاقتصاد والنقد وعلم النفس ، كل في فرع تخصصـه ، ويتناولون فيها المشكلات الثقافيـة بالبحث والتحليل ، فيلقون الاضواء عليها ويحاولون ان يستخلصوا الحلول لها بقدر الامكان .

ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المجال برامج الموسيقى العالمية التي تستغرق ما يقرب من الست ساعات في الاسبوع ، اي مـــا يعادل ربع الوقت المحدد للبرنامج الثاني كله . وبالاضافة الى ذلك يذيع البرنامج الثاني القصص القصيرة العالميـة ، كما يعالج مشكلات وقضايا الساعة اولا بأول .

ومن اهم الخدمات التي اداها الراديو خدمته للغة العربية . فقد حطم الاسوار المادية والمعنوية بين اهل المدن واهل الريف ، كما تخطى الحدود الجغرافيـة بين البلاد العربية ، فاصبحت اذاعة القاهرة تسمع في جميع البلدان العربية كما ان القاهرة اصبحت تستمع الى اذاعات بغداد وبيروت ودمشق وعمان . لقد ساعدت الاذاعـــة على ايجاد التقارب بين شعوبنا في نطاق اللغة القوميـة العامة . وطوعت اللغة لمقتضيات الاداء السليم ، مما جعل الاستماع اليها محببا الى النفس ، واصبحت اللغة الفصحى من الاشياء التي يفهمها ويحبها كل الناس بسبب الالقاء العذب الشجي الذي يقوم به المذيعون . وبذلك اسهم الراديو بنصيب وافر في توضيح المفهوم الاجتماعي الصحيح للغة العربية .

على ان الراديو ، بالرغم من اهتمامه بنشر اللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة القومية العامة للشعب العربي ، لم يغفل امر اللهجات المحلية والطبقية حتى يؤدي رسالته نحو اللغة بشكل اعم واوفى ، خاصة وانه اكثر وسائل الاتصـــال بالجماهير ديمقراطية . فقد عني باذاعة هذه اللهجات وابرازها ونشرها ، وبذلك ساعد كثيرا في عملية التقارب بين مختلف طوائف وطبقـــات الشعب العربي . ونتيجة لتخطيه الحدود الجغرافية اصبح المستمع في

القاهرة يستطيع ان يستمع الى تمثيلية اذاعية في بيروت باللهجة اللبنانية ويتذوقها ويفهمها، كما اصبح السوري او العراقي يفهم ويتذوق تمثيلية باللهجة القاهرية او الريفية او الصعيدية .

اخطر اجهزة الاعلام

ان اجتماع الصوت والصورة في التليفزيون يعطي لهذا الجهاز اهمية مضاعفة ، وهو وان كان اقل انتشارا من الراديو واكثر تكاليف منه ، الا ان المحيط الذي يعمل فيه يشمل جميع المجالات التي يعمل فيها الراديو بالاضافة الى مجالات السينما والمسرح .

ويعتبر التلفزيون من اخطر اجهزة الاعلام لانه يفوق جميع وسائل الاتصال الجماهيرية الاخرى من حيث حجم الجمهور الذي يشاهده وعدد الساعات التي يقضيها الناس في مشاهدته . ذلك لان فعله المزدوج في التأثير على المشاهد عن طريق حاستي السمع والبصر جعل منه وسيلة فوق العادة للتسلية والترفيه والاعلام والتعليم والتثقيف والتوجيه ، كما انه صرف كثيرا من الناس عن متابعة برامج الراديو والذهاب الى السينما ، وجعلهم يقتطعون الكثير من اوقات راحتهم وساعات نومهم ليقضوها مشدودين اليه . ومما يزيد ايضا في خطورة هذا الجهاز السحري ان الاحصاءات قد اثبتت ان متوسط عدد الساعات التي يقضيها الناس في مشاهدة التلفزيون يزداد باطراد مستمر .

واذا تحدثنا عن تلفزيون الجمهورية العربية المتحدة الذي ولد في تموز (يوليو) ١٩٦٠ لوجدنا انه احدث انقلاباً خطيراً في الحياة الاجتماعية ، كما خلق نهضة فنية كبرى وثورة ثقافية ضخمة .

لقد بدأ التلفزيون العربي ارساله على قناة واحدة لمدة خمس ساعات يوميا ازدادت الى ثماني ساعات ، ثم انشئت بعد ذلك قناتان اخريان فاصبح التلفزيون العربي يقدم ثلاثة برامج يومية على ثلاث قنوات ، وبذلك بلغت ساعات الارسال ما يقرب من اثنتين وعشرين ساعة يوميا زيدت اخيرا الى سبع وعشرين ساعة في اليوم .

وفي البداية اعتمد التلفزيون العربي على الافلام السينمائية ونشرات الاخبار والاغاني وبرامج المنوعات ، اي انه اعتمد على مواد التسلية والترفيه مع القليل من المواد الاعلامية . ونظراً لجدة التلفزيون بالنسبة للناس فقد جذب اليه الجماهير من كل الطبقات ، واضطر أفراد الاسرة لقضاء اوقات فراغهم بالمنزل فتوثقت الروابط بينهم ، وجذب التلفزيون ايضا ضيوفا على الاسرة من الذين لا يمتلكون التلفزيون واصبح البيت الذي يقتني جهازا للتلفزيون بمثابة منتدى صغير يلتقي فيه افراد الاسرة مع جيرانهم واصدقائهم ليقضوا اغلب الوقت امام هذا الجهاز العجيب الجديد . وبفضل التلفزيون اصبح الجمهور على صلة وثيقة بل اصبح يشارك ايضا في جميع اوجه النشاط المحلي الادبي والفني والسياسي والعلمي،

هذا بالاضافة الى متابعة الاحداث والانباء العالمية ومتابعة خط سير تيار الحضارة في البلاد الاخرى عن طريق الافلام التي يستوردها التلفزيون من هذه البلاد .

ولم يكتف التلفزيون بذلك بل غيَّر من اذواق وعادات مجتمعنا العربي ، فقد جعل الاسرة تقضي اغلب اوقات فراغها في المنزل ، ولم يعد النـاس يستمعون الى الراديو الا في القليل النادر ، وتأثرت دور السينما كثيرا ، اذ ان الافلام العربية والاجنبية التي يعرضها التلفزيون قد اغنت الناس في الكثير من الليالي عن تكلف مشقـــة الذهاب الى السينما ، وبدأت صناعة السينما تعمل حسابا لهذا المنافس الخطير .

ولما ازدادت ساعات ارسال التلفزيون العربي ظهرت الحاجة الملحة لملء جزء كبير من هذه الساعات بتمثيليات كتبت خصيصا للتلفزيون ، وبروايات مسرحية تستغرق الواحدة منها ما يقرب من ثلاث ساعات . ومن هنا نبتت فكرة انشـاء مسرح التلفزيون ، الذي بدأ نشاطه في اوائل ١٩٦٢ ، وكان في ذلك الحين يتكون من ثلاث فرق كان هدفها ان تقدم روايات على المسرح العام تنتهي مدة عرضها بمجرد ان يسجلها التلفزيون ، ولذلك فقد كان عرض الرواية لا يزيد عن ثلاثة او خمسة ايام . وفاقت النتيجة تصورات اكثر الناس تفاؤلا ، فقد اقبلت الجماهير على المسرح اقبالا شديدا ، وزادت رقعة النشاط المسرحي ، وقد ساعد على ذلك تخفيض اسعار المسرح مما شجع طبقات العمال والموظفين والكادحين على ارتياد المسرح . وهكذا عرفت طريق المسرح فئـات وقطاعات جديدة من الناس لم تكن تعرف من المسرح الا اسمه . اما الطبقات القادرة التي تمتلك اجهزة التلفزيون ، فقد انبثقت فيها الرغبة لرؤية المسرحيات التي يشاهدونهـــا مسجلة في التلفزيون، وهي تتنفس الحياة على خشبة المسرح ذاتهـــا . وهكذا كسب المسرح هذه الفئة من الجمهور ايضا واصبحت سهرة المسرح من السهرات المفضلة لدى كافة الناس ، واضطر المسؤولون الى مد مدة عرض المسرحية الى ١٠ ايام او اسبوعين في الكثير من الاحيان .

وقد قدمت فرق التلفزيون المسرحية ٥٢ مسرحية واقامت ١٤٠٠ حفلة في مدى عامين (١٩٦٢ — ١٩٦٤) ، وبلغ عدد رواد المسرح في هذه الفترة ما يقرب من نصف مليون شخص . وتضم هذه الفرق الآن ١٧٤ ممثلا وممثلة ، هذا بالاضافة الى الكثير من المؤلفين والمخرجين الذين كسبهم المسرح . وكان المسرح قبل انشاء التلفزيون العربي يشكو الخمول والركود ، ولكن التلفزيون بعث فيه الحيوية ، وزاد من رقعـة النشاط المسرحي ، وهو بسبيل خلق وعي مسرحي وبالتالي وعي ادبي وفني . وينبغي استغلال هذا الاقبـــال الشديد على المسرح في توجيه الجماهير والنهوض بمستواهـــا الثقافي والاخلاقي . وقد لعب التلفزيون الدور نفسه في النهوض بالفنون الشعبية والفنون الاستعراضية ، واعتقد ان الشيء ذاته يمكن ان يحدث في البلاد العربية الاخرى لو انها اتبعت الخطـة التي اتبعها التلفزيون

العربي في القاهرة .

اما برامج التلفزيون فقد حاولت ان تؤدي دورها الثقافي والعقائدي في المجتمع بقدر الامكان، فاشتملت على برامج ثقافية تناقش فيها الكتب الادبية والقضايا الفنية والمسرحيات والفنون التشكيلية . وتتخذ هذه المناقشات طابع الندوات التي يشترك فيها الدارسون والمتخصصون والنقاد ، كما تعقد الندوات ايضا مع المسؤولين لمناقشتهم في القضايا المحلية التي تهم الشعب . وقد حاول التلفزيون ان يغطي الحياة المحلية ببرامج اخبارية واعلامية تنقل الاحداث فور حدوثها وتعلق عليها وتلخص ما تنشره الصحف والمجلات وتعلق عليه . وبالاضافة الى هذا يعرض التلفزيون افلاما تسجيلية بقصد الاعلام والتثقيف والتوجيه ، وتمثيليات تلفزيونية هادفة بقصد التثقيف او التوجيه الوطني او الاخلاقي او الاجتماعي او العقائدي ، والكثير من هذه التمثيليات يقوم بدور ايجابي في توعية الجمهور بالاشتراكية ومبادئها ونظم تطبيقها باعتبارها النظام العقائدي لمجتمعنا الجديد ، كما يوجد برنامج صحي يهدف الى النهوض بالوعي الصحي للجماهير ومدهم بالثقافة الصحية اللازمة . وبالاضافة الى هذا توجد برامج تهدف الى معالجة مشكلات الشباب ومشكلات الاسرة التي تعرض على هيئة تمثيلية ثم يؤخذ رأي ذوي الخبرة في حل كل مشكلة على حدة . ولم يغفل التلفزيون العربي البرامج التاريخية التي تهدف الى احياء الروح الوطنية وعرض امجاد العرب الماضية وتسجيل تاريخ الشخصيات العربية التي لعبت ادوارا هامة في سبيل التحرير العربي او مكافحة الاستعمار . والى جانب ذلك توجد برامج اعلامية بقصد تعريف المشاهد بمعالم بلاده ومعالم البلاد الاخرى وعادات الشعوب المختلفة وفنونها وآدابها .

ويختص البرنامج الثالث في التلفزيون بنقل الثقافة الرفيعة للجمهور، وهو يسير على نمط البرنامج الثاني بالاذاعة ويعتمد في ملء برامجه على الافلام المستوردة من الخارج والتي تعنى بالنواحي الثقافية او العلمية او التي تسجل حياة الشخصيات التاريخية العالمية والاحداث التي غيرت مجرى التاريخ ، هذا بالاضافة الى برامج الاوبرا والاوبريت والموسيقى العالمية وندوات الفكر والفن التي يناقش فيها النقاد احدث ما يعرضه المسرح المصري سواء من المترجمات العالمية او من المؤلفات المحلية القيمة .

اما تأثير التلفزيون على القراءة فيمكن تلخيصه في انه قضى على القراءات التافهة بينما جعل الجمهور يقبل على قراءة الكتب الجادة التي يناقشها او يعرضها في برامجه ، سواء في ذلك الكتب السياسية او العقائدية او الثقافية ، كما زاد الاقبال على قراءة المسرحيات المترجمة والمحلية والمصنفات الادبية المتعلقة بفنون الدراما وخاصة من جمهور المؤلفين والصحفيين والنقاد الذين يعهد اليهم بتأليف تمثيليات التلفزيون او اعداد البرامج او نقد هذه البرامج سواء في الصحف او على شاشة التلفزيون .

تخطيط لاجهزة الاعلام

ولننتقل الآن الى نقطـــة اخرى وهي خاصة بالدور الذي ينبغي ان يلعبه الراديو والتلفزيون في مجتمعنا العربي .

من المعلوم انه بعد انشاء التلفزيون العربي قلت نسبة الاستماع الى الراديو بدرجة كبيرة، وقد قدرت هذه النسبة في مدينة القاهرة ، تبعا للابحاث التي قام بهـــا المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بما يقرب من ثمانين في المائة . من اجل هذا كان على الراديو ان يكافح كفاحا مريرا اذا اراد ان يبقى ويعيش في عصر التلفزيون .

وعلى الدول العربية ان تتكاتف وتتساند فيما بينها لوضع تخطيط شامل لاجهزة الاعلام بحيث تغطي رقعة الوطن العربي كلها ببرامج مدروسة هادفة على ضوء الدراسات النفسية والاجتماعية والاحتياجات الثقافية والاخلاقية والعقائدية للشعوب العربية . ولقد قامت الجمهورية العربية المتحدة بدور كبير في هذا المجال ، اذ انها دعت الى مؤتمر الاعلام للدول العربية الذي عقد بالقاهرة منذ شهور قليلة، كما انشأت بمنطقة ابيس بالقرب من الاسكندرية اكبر محطة ارسال اذاعي في العالم ، ووضعت خطة لتوفير اجهزة الراديو في جميع انحاء الجمهورية العربية المتحدة باسعار في متناول الجميع على اساس انتاج ٢٥٠،٠٠٠ جهاز كل عام ، وتهدف هذه الخطة الى ان يكون لكل مواطن جهـاز راديو في بيته. وياحبذا لو تمكنت الدول العربية الشقيقة من انشاء محطات ارســـال اقوى من محطاتها الحالية ، وشجعت انتشار الراديو حتى يصل الى يد كل مواطن عربي .

ان التطور والتقدم الآلي الذي حدث في اجهزة الاستقبال ونتج عنه ظهور الترانزستور الذي يمكن حمله الى اي مكان وسماعه في اي وقت كان له اثره البالغ على البرامج الاذاعية، اذ انه جعل اليوم كله مسموعا ، فلم تعد هناك فترة مسموعـــة واخرى غير مسموعة . ولذلك ينبغي استغلال هذه الميزة وشد المستمع الى جهاز الراديو بالعمل على تنويع البرامج وادخال عوامل التشويق فيهـا . وللوصول الى ذلك ينبغي القيـــام بعملية مسح شاملة للشعوب العربية لمعرفة ميولها واتجاهاتها ومدى استجابتها للبرامج المختلفة واحتياجاتها وتطلعاتها الى آفاق المعرفة والثقافة ونواحي النقص التي تشكو منها ، حتى يتمكن الراديو من التغلب عليها والعمل على سد اية ثغرة في البناء العقائدي والثقافي والوطني والاخلاقي والاجتماعي للشعوب العربية .

ان التفتح السياسي والعقائدي والثقافي الذي تمر به الشعوب العربية اليوم قد فرض على الاغنية والتمثيلية الاذاعية الا تكونا مجرد وسيلة للترفيه واللهو بل وسيلة لاستنهاض الهمم وتقوية الارادة وفتح ابواب التفاؤل والامل والحض على الكفاح والعمل . وينبغي ان تصل التمثيلية الاذاعية الى اهدافها هذه بالطرق غير المباشرة فلا نحس بانها تقصد توجيهنا،

والا انصرفنا عنها ، وهذا يقتضي ان يشرف على كتابتهـــا فريق مدرب من علماء النفس والاجتماع ، وبذلك تصل الى اهدافهـــا دون ان تتخذ موقف النـــاصح او المرشد او الواعظ وهي ابغض الاشياء الى المستمعين جميعا .

وينبغي على الراديو ان يهتم بقطاعات الفلاحين والعمال والموظفين ، فيعدّ برامج خاصة بهم تعرض مشكلاتهم وتهتم بهواياتهم ، وتنمي فيهم روح التطلع نحو المعرفة والثقافة .

ولتقريب الشقة وزيادة التآلف بين الشعوب العربية ، ينبغي تبادل البرامج المسجلة بين محطات الارسال العربية ، وخاصة البرامج التي تعبر عن حيـــاة كل شعب من هذه الشعوب وتقاليده وعاداته وثقافته وآماله وتطلعاته ، ويستحسن ان تكون هذه البرامج باللغة العربية الفصحى حتى يفهمها جميع المستمعين ، وان كان لا مـــانع هناك من تبادل بعض البرامج باللهجات المحلية الخاصة .

وهناك مشروع يبحثه مؤتمر الاذاعات العربية الذي انعقد في القـــاهرة في شهر آب (اوغسطس) من العام الحالي يتلخص في ان يذاع مساء كل خميس ابتداء من منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ برنامج مدته ساعة من احدى المحطـات العربية تنقله عنها باقي محطات الاذاعة العربية فورا ، اي ان هذا البرنامج سيسمع في جميع البلاد العربية في وقت واحد . وسيأخذ هذا البرنامج شكل مجلة تتكون من افتتاحيـــة واخبار علمية وادبية وفنية ورياضية مع حديث عن احدى العواصم العربية . ولا شك ان هذا البرنامج ، بالاضافة الى تبادل البرامج الاخرى ، سينتج اثره الكبير في تدعيم التقـارب والالفة وفي انماء الوحدة اللغوية والفكرية والعقائدية والثقافية بين مختلف الشعوب العربية .

ولكي يستطيع التلفزيون ان يؤدي دوره على اكمل وجـــه يجب ان يصل الى جميع المستويات ، فيخاطب الفلاح والعامل والطالب والطفل والمرأة والشاب والشيخ والمتعلم ونصف المتعلم والجاهل ؛ ولذلك ينبغي ان تعمل الدولة على ان تصل برامج التلفزيون الى اكبر عدد ممكن من الجماهير ، وذلك بان تزود كل قرية من قرى الريف بجهاز او اكثر يوضع في اماكن التجمع كالميادين والامـاكن العامة ، كما ينبغي ان تباع الاجهزة بارخص سعر ممكن حتى يتمكن عامة الشعب من العمال ومتوسطي الدخل من اقتناء جهاز التلفزيون.

ولكي يؤدي التلفزيون دوره من الناحية العقـــائدية ينبغي ان يسهر على تثبيت القيم الاجتماعية والمفهومات السياسية السائدة في المجتمع ويعمل على نشرهـا ، كما يجب عليه ان يتعرض للقيم المخالفة لقيم المجتمع ويوضح عيوبها ويكشف استارها ، وفي كلتا الحالتين يستخدم اسلوب الايحـاء تارة والاغراء تارة اخرى في شكل تمثيليات وبرامج وندوات ومناقشات علمية مدروسة . وينبغي على التلفزيون ايضا ان يسهم في ايجاد التناسق والانسجـام بين الافراد والجماعات ويعزز الصلة بين فئات المجتمع الواحد ، حتى يحدث التفاعل الذي يؤدي

الى توحيد مشاعر الافراد وتقارب اذواقهم واتجاهاتهم وافكارهم، وهذا بدوره يساعد على تكوين رأي عام يقظ، وينمي التضامن الاجتماعي بطريقة تسمح بتفاعل الافكار والعواطف، وتؤدي الى خلق افكار ومفاهيم جديدة ، كما ينبغي ان يستنبط وسائل جديدة لتطوير الحياة الاجتماعية ودفعها الى الامام بقصد تحقيق حياة افضل .

ولكي يقوم التلفزيون بمهمته الثقافية على الوجه المثالي يجب عليه ان يستعين بالسينما في انتاج افلام ثقافية تعرض وسط البرامج العادية، هذا بالاضـــافة الى التمثيليات والبرامج الخاصة المنوعة التي تخـــاطب جميع المستويات . وينبغي ان يعطي التلفزيون اهمية خاصة لبرامج التوعية والثقافة الصحية وان يستعين بالافلام والصور واللوحات كوسائل للايضاح، ويهتم ايضا بالبرامج الاعلامية التي تهدف الى تعريف الشعب بآثار بلاده والبلاد العربيـــة الاخرى والمناطق السياحية فيها ، وعرض نواحي التقدم في مجالات العلم والفن والادب .

وينبغي ان يهتم التلفزيون ايضا بالبرامج التي تصور حياة الشخصيات العربية البارزة في الميادين الوطنية والمجالات الثقافية. وان يعرض الكتب العربية والكتب الاجنبية المترجمة في شكل حوار مع المؤلف او المترجم، مع التوضيح بالصور واللوحـــات كلما امكن . وان يعنى بعرض برامج عن الفنون التعبيرية والتشكيلية والشعبية والتطبيقية توضح نشأتها وتطورها ومدى مساهمتها في الارتفاع بالقيم الانسانية العامة وبالقيم الثقافية والجمالية على وجه الخصوص .

ولا يمكننا ان نغفل اهمية البرامج الموسيقية والراقصـــة المنتقاة ، واثرها في شحذ وجدان الشعب وارهاف عواطفه وصقل حساسيته وتنمية ذوقه الفني والنهوض بمستوى احساسه بالجمال ، مما يكون له ابلغ الفاعلية في تكييف نظرته الى الحيـــاة نحو التفاؤل وحب الخير ، وتنقية احساسه بالوجود ، ورفع مستوى سلوكه مع نفسه ومع الآخرين .

السينما والمجتمع العربي

واذا انتقلنا الى السينما وجدنا ان القاهرة هي المركز الرئيسي لهذه الصناعة في الشرق العربي ، وتليها بيروت .

وصناعة السينما في القاهرة كانت قبل سنتين مركزة في يد المنتجين الاحرار الذين لم تتدخل الدولة في انتاجهم الا عن طريق الرقـــابة على موضوعات الافلام التي ينتجونها لحسابهم الخاص . ولكن الدولة لم تكن لها سلطة مباشرة في توجيه هذه الموضوعات نحو الوجهة التي تخدم الناحية العقائدية او الثقافية او الوطنية ، ولذلك يؤسفنا ان نقول ان السينما منذ نشأتها في مصر في العشرينات من هذا القرن لم تقم بدورها في النهوض بالمجتمع العربي او مسايرة نواحي التقدم فيه . ذلك لان رأس المال الخاص هو الذي كان يتحكم في

السينما ، وكان منتجو الافلام وموزعوها يعتبرون هذه الصنـــاعة موردا للربح والثراء . وكانت لا تهمهم الاتجـــاهات الوطنية او القيم الاخلاقية او النواحي الثقافية ، ولم تكن نظرتهم الى السينما تخرج عن كونها وسيلة لملء جيوبهم بالمال عن طريق تسلية الجماهير باي شكل كان . وقد شجع تحقيق الربح السهل عن طريق السينما بعض اغنيـــاء الحرب والرأسماليين ، الغرباء تماما عن هذه الصنـــاعة ، على الدخول في ميدان الانتاج والتوزيع السينمائي ، وكانت النتيجة ان قصص الافلام تركزت في الموضوعات السطحية وموضوعات الاثارة الجنسية والضحك الرخيص والاسفاف والابتذال . وكانت الافلام تحشى بالرقصات والاغاني والاستعراضات ومناظر الكباريهات التي لم تكن لهـا اية صلة باحداث الفيلم ، وانما كان المقصود بها استغلال الجماهير بطريقة رخيصة سهلة لابتزاز نقودهم. اما موضوعات الافلام فكانت لاتنبع من بيئتنا ولا تعبر عن واقعنـــا ، لانها اما كانت مقتبسة من موضوعات الافلام الاجنبية ، او كانت تجنح نحو الافتعال والرومانسية المفرطـــة او الميلودراما بقصد التأثير في وجدان الجماهير والهاب عواطفهم واغراقهم في الخيالات والاوهام . اما بالنسبة للكوميديا فقد كانت الافلام تعالج الموضوعات الفكاهية بطريقة بدائية مبتذلة ليس لها من هدف الا الاضحاك عن طريق الاسفاف والتهريج. ومع ذلك فلا نستطيع ان ننفي او نقلل من شأن بعض الجهود الجادة المخلصة التي حاولت الارتفـــاع بمستوى السينما العربية ، ولكن كان يطغي عليها ذلك التيار الجارف من الافلام الهزيلة التافهة .

والخلاصة ان السينما فشلت في القيام بدور ايجابي في مجتمعنا العربي ، بل اخشى ان اقول ان دورها كان هداما في بعض الاحيان . انها لم تتعرض لتاريخنا الماضي لتستخرج كنوزه ، ولم تعالج واقعنا ، ولم تعبر عن قضايانا ومشكلاتنـــا ، ولم يجد الجمهور مرآة لنفسه او لحياته او تحقيقا لذاته في الافلام التي كان يشاهدها .

وقد حاول بعض المخلصين من الفنيـــين السينمائيين انقاذ السينما من الطريق المسدود الذي سارت فيه ، وتوجيه موضوعاتها نحو حياتنا الواقعية ، ففكروا في استغلال قصص الادباء العرب مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد الله واحسان عبد القدوس وغيرهم من اعلام القصـــة في الوطن العربي ، وكان من اثر هذا التزاوج بين السينما والادب ان ارتفع مستوى القصة وبالتالي موضوع الفيلم . ولكن هل جودة القصة وحدها ، مع الاعتراف باهميتها البالغة ، كافية لانتاج افلام عربية ذات مستوى جيد ؟ ان الرد على هذا السؤال يستلزم الانتقـــال الى السبب الثاني من اسباب ضعف الافلام العربية ، الا وهو السيناريو .

من المعروف ان السيناريو الجيد كثيرا ما كان السبب في نجاح قصـــة عادية او فكرة ساذجة ، كما ان السيناريو السيء كثيرا ما يعرض القصة الجيدة للفشل . والواقع الذي لا

شك فيه اننا نفتقر افتقاراً شديداً الى العناصر البشرية الدارسة والمتمكنة من فن كتابة السيناريو . فبالرغم من ان القاهرة تنتج ما يقرب من ٥٠ فيلما في السنة ، الا ان كتاب السيناريو الذين يمكن الاعتماد عليهم لا يزيدون ان لم يقلوا عن عدد اصابع اليد الواحدة ، وحتى هؤلاء لم يدرسوا هذا الفن دراسة علمية صحيحة وانما شقوا طريقهم فيه بالممارسة والمران.

فاذا تحدثنا عن الاخراج ومستوى المخرجين لوجدنا العجب العجاب . ان عندنا ٧٧ مخرجا مقيدين في مهنة الاخراج السينمائي ، ومع ذلك فلا نكاد نجد من بينهم سوى خمسة يستحقون لقب مخرج سينمائي . لقد امتلأ الحقل السينمائي بكل من هب ودب ، وبكل من ساورته نفسه بالكسب من اسهل طريق ، ووجد المنتجون والموزعون والمخرجون الميدان فسيحا امامهم في سنوات الحرب العالمية الثانية للاثراء السهل السريع دون ان يكون لهم المام او خبرة بمقتضيات العمل السينمائي ودون ان يكونوا على شيء من الثقافة او الدراسة السينمائية .

كان الفيلم يكتب في ساعات ، وكثيرا ما كانت تكتب اللقطات يوما بيوم في داخل الستوديو وقبل التصوير بدقائق ، اما التصوير فلم يكن يستغرق سوى بضعة ايام يكون الفيلم بعدها جاهزا للعرض . ومرت الايام وارتفع وعي الشعب العربي فادرك مدى الاستغلال الذي وقع فريسة له طوال الاعوام الماضية ، فانصرف عن السينما ، وكانت النتيجة تلك الازمة التي تعانيها هذه الصناعة اليوم وخاصة بعد انشاء التلفزيون .

اما الممثلات والممثلون فكثيرا ما كانت تتدخل العلاقات الشخصية وروابط القرابة مع المنتجين والمخرجين في الدفع بهم الى الظهور على الشاشة البيضاء دون دراسة سابقة او خبرة او مران . وظلت الوجوه المعروفة من الممثلين السينمائيين تطلع على الجمهور في عدة افلام في وقت واحد لمدة سنين عديدة دون ان تنافسها وجوه جديدة ، مما جعل الحقل السينمائي اشبه بشركة من شركات الاحتكار . وكانت النتيجة ان ملت الجماهير تكرار هذه الوجوه وتكرار طريقة التمثيل وتكرار موضوعات الافلام .

اما مشكلات السينما الاخرى فتتلخص في نقص المعدات والامكانيات الآلية وعدم وجود روح التعاون ومتطلبات العمل الجماعي بين المنتجين والفنيين والفنانين المشتركين في الفيلم الواحد ، وعدم وجود اسواق للفيلم العربي خارج منطقة الوطن العربي ، واخيرا وليس آخرا عدم وجود النقد الواعي المتخصص البعيد عن التأثر بالتيارات الشخصية والذي يستطيع ان يقيم الاعمال الفنية فيبرز ما فيها من حسنات وينقد ما بها من عيوب ، ويوجهها نحو الهدف السليم ويرشدها الى الطريق السوي الصحيح .

اما طريقة حل هذه المشكلات فتقتضي تضافر جهود الدولة مع جهود المشتغلين بصناعة السينما لوضع تخطيط لهذه الصناعة لمدة خمس او عشر سنوات ومعالجة جميع المشكلات

بروح مخلصة صادقة حتى يمكن اقالة هذا الجهاز الاعلامي الخطير من عثرته والنهوض بمستواه الى المكانة اللائقة به ، وعندئذ فقط تستطيع السينما ان تقوم بدورها في مجتمعنا العربي بقوة وفاعلية وايجابية .

ان الدولة يجب ان تتدخل لتنظيم الانتاج السينمائي بوضع قوانين خاصة تمنع الدخلاء والانتهازيين وهواة الكسب السهل من العمل بهذه المهنة ، كما يجب ان تحدد صفة المنتج السينمائي وحدود اختصاصاته والتزاماته وعلاقاته بالمخرج والممثلين والفنيين . ويجب على الدولة ايضاً ان تتدخل في عملية توزيع الافلام، فاما ان تتولى بنفسها عملية التوزيع وفتح الاسواق الخارجية امام الفيلم العربي واما ان يخضع الموزعون لاشرافها ورقابتها المباشرة.

ولما كانت اهم ازمة في السينما هي الازمة الفكرية التي تعني ضعف العقلية السينمائية وضعف التفكير السينمائي ، فان من اهم واجبات الدولة العمل على رفع المستوى الفكري والثقافي للمشتغلين بهذا المرفق الخطير، وذلك بايفاد البعوث الى الخارج للدراسة والتخصص في كافة فروع السينما ، وتشجيع خبراء السينما الاجانب على الانتاج المشترك لافلام عربية تدور اغلب احداثها في المنطقة العربية على ان تشترك في هذه الافلام وجوه عربية من الممثلين وعدد من الفنيين العرب الذين لا شك سيستفيدون فائدة كبرى من العمل مع الخبراء الاجانب .

القطاع الخاص والقطاع العام

وقد قامت الجمهورية العربية المتحدة بخطوات جريئة في سبيل النهوض بصناعة السينما، فأنشأت قطاعاً عاماً للسينما يعمل تحت ادارتها المباشرة ويستعين بالكفاءات الفنية الخاصة.

ويتكون القطاع العام للسينما من شركتين لانتاج الافلام العربية ، تتنافسان فيما بينهما في سبيل انتاج فن اجود، وشركة ثالثة لانتاج الافلام العالمية المشتركة، وشركة رابعة مهمتها القيام بتوزيع الافلام في مختلف الاسواق العربية والاجنبية ، وشركة خامسة تقوم بانشاء دور للعرض في المدن والريف .

اما شركتا انتاج الافلام العربية فهما تشجعان اصحاب المواهب الفنية سواء من الادباء المشهورين او الناشئين للتقدم بانتاجهم القصصي للسينما ، وتعقدان المسابقات المفتوحة لكل من شاء ان يتقدم بقصة او اكثر بشرط ان تكون مكتوبة خصيصاً للسينما وان تعالج الموضوعات التاريخية او الاجتماعية او الوطنية او الفكاهية الهادفة . وتخصص للفائزين من المتسابقين مكافآت مالية ضخمة . وقد انشأ القطاع العام معهداً لدراسة السيناريو اقبل عليه الكثيرون ممن وجدوا في انفسهم الموهبة والرغبة في مزاولة كتابة السيناريو ، ولا شك انه سيتخرج من هذا المعهد اناس اكفاء ستزيد الممارسة والخبرة

من كفاءتهم بمضي الزمن ، كما انهم سيستفيدون كثيرا لو امكن ارسالهم الى الخارج في بعثات قصيرة او طويلة الاجل حسب حالة كل منهم .

وقد خطت القاهرة خطوات واسعة في طريق الانتاج العالمي المشترك ، اذ انها دخلت شريكة في الانتاج السينمائي العالمي مع المانيا وايطاليا وانكلترا وامريكا وبولندا ، وقد رصدت الدولة مبلغ ٥٧ مليون دولارا لاستثماره في صناعة السينما لانتاج ٢٤ فيلماً مشتركاً وذلك بعد شهور قليلة من بدء شركة الانتاج العالمي في العمل . ولا شك ان هذه بداية قوية تبشر بطفرة كبيرة في صناعة السينما العربية .

وكما تحتضن شركات القطاع العام كتاب القصة المجيدين فانها تشجع اصحاب المواهب من الوجوه الجديدة من الممثلات والممثلين الذين بلا شك سيكونون سببا من اسباب عودة اقبال الجماهير على السينما بعد ان ملت تكرار الوجوه القديمة .

ومنذ خمس سنوات مضت انشأت الجمهورية العربية المتحدة معهدا للسينما به شعب لدراسة الاخراج والتصوير وكتابة السيناريو والانتاج وهندسة الصوت والمعمل والمونتاج والتمثيل والمكياج وكافة فروع السينما . ويتخصص كل طالب في دراسة الفرع الذي تؤهله له موهبته واستعداده . ولا شك ان الخريجين من هذا المعهد سيحملون على اكتافهم عبء النهوض بصناعة السينما والدخول بها في مرحلة جديدة تقوم على اسس من العلم والدراسة ، كما ان هذه البراعم الجديدة ستستفيد كثيراً لو اتيح لها السفر الى الخارج في بعثات طويلة الاجل تعود بعدها وقد تفتحت وازهرت ، فتصبح عندئذ اقدر على حمل تبعات النهوض بالسينما والانطلاق بها في الافاق الواسعة التي لم ترتدها السينما العربية حتى اليوم .

ولعل اهم خطوة خطتها الجمهورية العربية المتحدة لاقالة السينما من عثرتها هي انشاء مدينة السينما التي وضع حجر اساسها منذ بضعة شهور ، والمفروض ان مدينة السينما بالقاهرة ، او هوليوود العربية ، ستضارع ان لم تفق مدينة السينما بروما ، ذلك لانها صممت بحيث تتكون من تسعة عشر بلاتوها ، وزودت بأحدث المعدات الالية ، وعشرات الغرف المهيأة لاستراحة الفنانين وعمل المكياج ، وورش عديدة كاملة للنجارة وبناء الديكورات واعمال البويات والتنجيد والزخرفة ، ومراكز لتسجيل الصوت ، ومركز ضخم به مولدات كهربائية لاغراض التصوير الخارجي ، وستوديو كامل التجهيز للحيل السينمائية ، وستوديو آخر للرسوم المتحركة ، ومعامل ضخمة تضم عشرات المعدات والآلات لتحميض وطبع الافلام الملونة والافلام العادية (ابيض واسود) ، ومبنى لصناعة الفيلم الخام وصالات للعرض السينمائي . وستقام المدينة على مساحة من الارض قدرها خمسون فداناً قابلة للزيادة في المستقبل .

والمفروض ان مدينة السينما هذه ستكون بمثابة قلعة تنطلق منها النهضة السينمائية ،

وستكون اهم عامل في رفع مستوى الصناعة والانتاج السينمائي العربي الى آفاق المجال السينمائي العالمي . وعندما يكتمل انشاؤها سنستطيع ان نستضيف الانتاج العالمي ونوفر له كل الامكانيات لكي يتم تصويره تحت سمائنا العربية الصافية ويشترك فيه الفنانون والفنيون العرب .

ولتشجيع السينمائيين على الاجادة خصصت الدولة جوائز سنوية للمنتجين والمخرجين والممثلين والفنيين الذين يثبتون تفوقهم في ميدان العمل السينمائي . ولكي تتغلغل السينما في الريف بصفة دائمة مستمرة ، وضعت خطة لزيادة دور العرض السينمائي بدرجة تتناسب مع عدد السكان بحيث يكون لكل عشرة آلاف مواطن دار لعرض الافلام .

هذا هو واقع السينما العربية اليوم . وهو واقع وان كان يبشر بمستقبل مشرق لصناعة السينما الا انه لكي تقوم السينما بدورها كاملاً ينبغي ان نواجه مشكلتين اساسيتين : المشكلة الاولى هي خلق وتربية العقلية السينمائية السليمة والتفكير السينمائي الصحيح بين الفنيين القائمين على صناعة السينما من منتجين وكتاب سيناريو ومخرجين ومصورين ومهندسين، ولا يتأتى ذلك الا بوضع تخطيط علمي لخلق اجيال جديدة من هؤلاء الفنيين، اجيال تستند الى الموهبة والدراسة والممارسة والمعاناة وحب السينما دون ان يكون الكسب المادي من اسهل طريق هدفهم الاول والاخير . والواقع ان حل هذه المشكلة سيحتاج الى بضع سنوات ينبغي ان تتضافر في اثنائها جهود المعاهد الفنية المختلفة ، بالاضافة الى ترجمة الكتب المتخصصة في كافة فروع السينما والمراجع السينمائية الاساسية ، واصدار مجلة سينمائية رفيعة المستوى تنشر فيها الابحاث والدراسات السينمائية والنقد التحليلي الجاد البناء للافلام العربية والاجنبية ، وانشاء مكتبة للافلام تحفظ فيها نسخ من الافلام العالمية الجيدة التي تستحق الدراسة ، وايفاد البعثات الى الخارج . وينبغي ايضا انشاء مركز للتجارب والبحوث السينمائية يعمل فيه الباحثون والمخرجون والمصورون للكشف عن وسائل جديدة لتحسين التكنيك السينمائي .

اما المشكلة الثانية فتنحصر في نشر الوعي السينمائي وتنمية حاسة التذوق الفني عموما بين الجماهير حتى يتم التفاعل وتحدث الاستجابة بين الشعب والسينما ، فتستطيع بذلك ان تقوم بدورها الايجابي في بناء مجتمعنا العربي . ولحل هذه المشكلة ينبغي ان تقوم الدولة بنشر الثقافة السينمائية في المدارس والجامعات ، وتشجيع انشاء جمعيات هواة السينما بين الطلبة ، والعمل على انشاء جمعيات الفيلم في المدن حيث تعرض على الجمهور الافلام الجيدة وتناقش في ندوات مفتوحة . كما ينبغي ان يخلق جيل من النقاد الواعين الجادين المتخصصين الذين ينشرون نقدهم السينمائي في الصحف والمجلات العادية والمتخصصة، ويذيعون آراءهم وافكارهم على الجماهير في مناقشات وندوات عن طريق الاذاعة والتلفزيون.

يجب ان تندمج السينما مع واقع مجتمعنا وتجيد التعبير عنه . ولكي تحقق هذا الهدف ينبغي ان تسير في الطريق ذاته الذي قطعته السينما الايطالية بعد الحرب الاخيرة. ينبغي على الكاميرا ان تخرج خارج الستوديو فتصور الطبيعة والشارع والمصنع ، وتتغلغل في حياة الرجل العادي فتصور مشكلاته وتعبر عن احاسيسه ، وتعطي صورة حقيقية لامانيه وتطلعاته وتتفاعل مع وجدانه ، وتهيء له وسيلة افضل للتسلية والترفيه ، غير مغفلة في الوقت نفسه النهوض بمستواه الثقافي والاخلاقي والعقائدي . ويهمنا في هذا المجال ان نشير الى اهمية العناية بالافلام التسجيلية والعلمية والاخبارية والثقافية والسياحية الى جانب الافلام الطويلة . لقد ظهر في السنوات الاخيرة مخرجون تخصصوا في الافلام القصيرة التسجيلية ، ولكن نسبة هذه الافلام ، بالرغم من اهميتها البالغة ، وخاصة في هذه الفترة المتفتحة من تاريخ الشعب العربي ، لا زالت ضئيلة ؛ ولذلك فان مثل هذه الافلام يجب ان يزيد انتاجها بنسبة مطردة كما يجب ان تشمل آفاقا اوسع وخاصة في مجالات الفن والعلم والتاريخ والآثار والاماكن السياحية . وينبغي ايضا ان نهتم بانتاج افلام الكارتون (الرسوم المتحركة) وافلام العرائس والافلام الخاصة بالاطفال .

ومن ناحية اخرى ينبغي على السينما الاهتمام كثيرا بانتاج افلام البطولات العربية والافلام التاريخية وعدم الضن عليها بجهد او مال ، حتى تظهر في مستوى عال من الاجادة وتستطيع ان تقف على قدم المساواة مع الانتاج الاجنبي المماثل .

الاعلام والجماهير وصفوة المثقفين

من المعروف انه كلما انخفض المستوى الاقتصادي والثقافي لجماعة من الافراد ازداد استخدامهم للراديو وتعلقهم به كوسيلة رخيصة سهلة للتسلية والترفيه ومصدر مهم للاخبار والمعرفة عموما . ولذلك فان الاذاعة تعتمد اساسا في تخطيط برامجها على ملاءمة هذه البرامج لذوق واحتياجات ومتطلبات رجل الشارع . وكلما انخفضت الجماهير في مستواها الثقافي ابتعدت عن الاستماع الى البرامج الاذاعية الرفيعة المستوى التي تدور حول المناقشات العلمية او الاقتصادية او الفنية او برامج الموسيقى الكلاسيكية الخ . والجماعات الفقيرة والطبقات الجاهلة التي لا تجيد القراءة والكتابة تعتمد اعتمادا كليا على الراديو كمصدر اساسي وحيد للاخبار والمعرفة والثقافة والتنوير . ونتيجة لذلك فان الراديو يعتبر وسيلة هامة من وسائل الاتصال بالجماهير على المستوى العريض والتأثير فيها من كافة النواحي وخاصة بين الفلاحين في الريف والعمال في المدن .

وليس معنى هذا ان الراديو ، لكي يكتسب الجماهير العريضة كمستمعين ، ينبغي ان ينزل ببرامجه الى مستوى رخيص من التفاهة والسطحية ، بل العكس هو الصحيح . ان

على الراديو رسالة كبرى سامية ينبغي ان يقوم بها نحو عامة الجماهير . ان عليه ان يزيد من مدارك الطبقات الجاهلة ويأخذ بيدها نحو الاستزادة من العلم والمعرفة ، ويهديها الى وسائل مقاومة الجهل والتخلف ويساعدها على التخلص من العادات السيئة والخرافات والتقاليد البالية . لذلك يجب ان تهدف برامجه الى الارتفاع تدريجيا بكافة المستويات الجماهيرية الى المستوى الحضاري اللائق بانسان النصف الثاني من القرن العشرين .

والشيء ذاته يمكن تطبيقه على التلفزيون وخاصة بعد ان يرخص ثمنه ويعم انتشاره . اما السينما فتأتي في المرتبة الثالثة بعدهما ، وان كانت قد تقدمت بدرجة اصبحت معها من الوسائل الهامة للاعلام والتثقيف .

ومن المعروف ان الشبان والطبقات غير المثقفة اكثر ترددا على السينما من الكبار والمثقفين واكثر تأثرا بها ، ولذلك فان الفيلم التجاري يضع نصب عينيه ارضاء العامة من الشعب بكل الوسائل وجذبها الى شباك التذاكر دون التفكير في اي هدف آخر . وللحد من تفاهة الكثير من الافلام التجارية قامت الدولة في بعض البلدان ، ومن بينها الجمهورية العربية المتحدة ، بانتاج الافلام او الاشراف بنفسها على انتاجها والمساهمة فيها ، وبذلك اصبحت السينما جهازا من اجهزة الاعلام الرسمية يمكن استغلاله وتوجيهه توجيها مفيدا لتثقيف الجماهير عن طريق الاكثار من الافلام العلمية والتسجيلية والسياحية والاخبارية .

وقد بدأت الجمهورية العربية المتحدة في انشاء مشروع ثقافي ضخم يهدف الى القضاء على الامية والجهل وتقديم ونشر الثقافة الاساسية للمواطنين في الريف ، وذلك بافتتاح ٢٠٠٠ من المراكز الثقافية في قرى الجمهورية المختلفة ، وستعمم هذه المراكز حتى تشمل جميع القرى . وسيزود كل مركز ثقافي بجهاز للتلفزيون وراديو وجهاز سينما ١٦ ملم لعرض الافلام على اهالي الريف ، ومكتبة تضم ٥٠٠ كتاب بالاضافة الى جميع الصحف والمجلات ليطلع عليها الاهالي مجانا . وفي القرى التي لا يوجد بها تيار كهربائي سيزود المركز بجهاز تلفزيون ترانزستور يوضع في اكبر ميادين القرية وراديو ترانزستور ، وستقام اذاعة سلكية في كل قرية وذلك بوضع مكبرات للصوت في اماكن متفرقة من القرية لكي يستمع جميع الاهالي الى برامج الاذاعة .

وتهدف الدولة من هذا المشروع ، بالاضافة الى النواحي التعليمية والثقافية ، الى ايجاد وحدة فكرية بين الجماهير في داخل قرى الجمهورية .

اما صفوة المثقفين فتستدعي عناية خاصة من الدولة ، اذ انها بحكم ثقافتها العالية العريضة لا تقبل كثيرا على الاستماع الى الراديو ، ولا تواظب على مشاهدة التلفزيون او الذهاب الى السينما ، وهي لا تنظر الى هذه الاجهزة الا على انها اجهزة للترفيه والتسلية . وهذه الصفوة لا تميل الى ان تفرض عليها منابع الثقافة فرضاً ، بل تحب دائماً ان تختار هي

بنفسها مـــا تميل اليه من الوان الثقافة والمعرفة، وغالبـا ما يتم هذا عن طريق الكتاب. ولما كانت الغالبية العظمى من نخبة المثقفين تجيد لغة اجنبية واحدة على الاقل فانها تواظب على اقتناء الكتب الاجنبية وقراءة الصحف والمجلات والدوريات الاجنبية، وتعتمد في تنمية وصقل ثقافتها على المراجع الاجنبية في اغلب الاحوال .

ولكي يجذب الراديو المثقفين للاستماع اليه ، افتتحت اذاعة الجمهورية العربية المتحدة اذاعة خاصة اسمتها «البرنامج الثاني» الذي سبقت الاشارة اليه، على نمط «البرنامج الثالث» بالاذاعة البريطانية . وبدأ البرنامج الثاني ارساله لمدة سـاعتين يوميا ، ازدادت بعد ذلك الى ثلاث ساعات وربع كل يوم .

وينبغي الاهتمام برفع مستوى هذا البرنامج ، بوضع تخطيط له يستهدف تقديم كل مـا يشتهيه المثقفون والراغبون في الثقافة، من انواع الثقافة العالية في العلوم والفنون والآداب والآثار والاقتصاد وشتى فروع المعرفة في قالب شيق جذاب . ويجب الاكثار من الندوات والمناقشات الجادة ، وتقديم وعرض الكتب الحديثة في كل ميدان ، وعرض احدث التطورات في الفنون التعبيرية والتشكيلية ، واحدث المذاهب الادبية ، وآخر اخبار العلم والاختراع ، بشكل يشد المستمع ويضطره الى متابعة ما يستهويه من هذه البرامج متابعة مستمرة . وللوصول الى هذا الهدف ، يجب ان يصل هذا البرنامج الى مستوى معين يحس المستمع معه ان الراديو يقدم اليه من نواحي المعرفة والثقـافة ما لا يستطيع تحصيله من الكتب الا ببذل الكثير من الجهد والمال والوقت . وينبغي ايضا زيادة ساعات ارساله الى خمس ، وتقوية موجته بحيث يصل صوتها الى جميع البلاد العربية .

واما التلفزيون فلم يغفل امر الصفوة ، فانشأ من اجلهم قنـــاة خاصة ، يذاع عليها البرنامج الثالث الذي مر ذكره . ولكن هذا البرنامج ايضا لا يلقى الاقبال المنشود، ولذلك ينبغي اعـادة تخطيطه وتطعيمه ببعض المواد المشوقة لاجتذاب المثقفين وعـامة الشعب لمشاهدته ، كاذاعة جلسات مجلس الامة ، او احد برامج المنوعات او غيرها من البرامج الجذابة ، حتى يتعود الناس على ادارة مفتاح التلفزيون ليشاهدوا قناة البرنامج الثالث .

وبالرغم من ان الراديو والتلفزيون حاولا ان يقوما بواجبهما نحو المثقفين على قدر استطاعتهما ، الا ان السينما لم تستجب لهذا الواجب بالقدر الكافي. والسبب في ذلك ان السينما كانت الى عهد قريب جدا تحت سيطرة المنتجين والموزعين الرأسماليـــين الذين لا يهتمون الا باستجداء غرائز الجماهير العريضة طمعا في الاثراء من اسهل طريق .

ولكي تؤدي السينما رسالتها نحو المثقفين ، ينبغي انشاء سينما الجيب ، وهي دار عرض خاصة للافلام الممتازة القديمة والحديثة ، التي تتميز بقيم فنيـــة وموضوعية ، ولكنها لا تلاقي اقبالا من عامة الناس . ويمكن قصر دخول هذه السينما على الفنانين والادباء والنقاد

وصفوة المثقفين ، في مقابل اشتراك سنوي يدفعه العضو نظير مشـــاهدته لهذه الافلام واشتراكه في الندوات التي يديرها اناس مختصون بقصد تقييم هذه الاعمال الفنية ومناقشتها.

الترفيه والاعلام والتثقيف

ان الاهمية والخطورة الفائقتين لوسائل الاعلام ، جعلت الحكومات في اغلب الدول تشرف اشرافا مباشرا وفعليا على هذه الاجهزة . ففي الجمهورية العربية المتحدة ، مثلا ، يقع الراديو والتلفزيون ضمن منطقة النفوذ المبـاشرة لهيئة الاذاعة والمسرح والموسيقى — تلك الهيئة التي تتبع وزارة الثقافة والارشاد القومي . وتبعا لذلك ، فان تخطيط برامج الاذاعة والتلفزيون تقوم به لجان حكومية تضع نصب عينيهـا الارتفاع بالمستوى الوطني والاخلاقي والاجتماعي والسيـاسي والعقـائدي والثقافي للشعب المصري ، مع الاهتمام في الوقت نفسه اهتماما فائقا بالناحية القومية باعتبار ان الشعب المصري جزء لا يتجزأ من الشعب العربي الذي يقيم فوق تلك القطعة الشاسعة من الارض التي تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي .

اما السينما فلم تشرف عليها الحكومة المصرية الا منذ وقت قريب ، ولا شك ان وضع هذا الجهاز الخطير تحت الاشراف المباشر للدولة سيجعله يسير في طريق متواز مع الراديو والتلفزيون ، ليخدم ويؤكد نفس الاهداف التي يخدمها هذان الجهازان .

والواقع ان الشعب العربي في مرحلته الحالية — مرحلة النهوض وتحقيق الذات — محتاج الى ان تنير له وسائل الاعلام طريقه ، وتأخذ بيده ، وترشده وتوجهه توجيها صحيحا في كافة نواحي النشاط الانساني ، حتى يستقيم عوده وتتفتح مداركه وينضج تفكيره . هذا من ناحية ، اما من النـاحية الاخرى فان النـــاس بطبيعتهم لا يتحمسون كثيرا لمن يوجههم او يرشدهم او ينصحهم بطريقة مباشرة ، ولذلك فان التوجيه الناجح في وسائل الاعلام هو الذي يعتمد على الطرق غير المباشرة . وقد سبق ان قلنا ان الوظيفة العامة لاجهزة الاعلام هي الترفيه والاعلام والتثقيف . اما الاعلام فهو تقديم الحقـائق المجردة للناس سواء كانت هذه الحقائق سارة ام غير سارة ، ورجل الاعلام لا يهمه فيما ينشره على الناس الا الاعلام ذاته . فاذا تدخل التوجيه في الاعلام ، فذلك لكي يبرز حقيقة معينة بشكل معين ليصل بها الى دعاية معينـة او هدف معين . واذا كان هذا الهدف يقصد به نفع الشعب في اتجاه او ناحيه معينة ، كاذكاء الدافع الوطني مثلا ، او اعلاء الروح المعنوية في وقت الحروب والازمات والنكبات ، فان التوجيه هنا يكون لازما ونافعا . امـا التوجيه في النواحي الترفيهية ، فيجب ان يقتصر هدفه على الاحتفاظ بمستوى معين لبرامج الترفيه حتى لا تهبط الى حضيض الابتذال والتفاهة والاثارة والاسفاف ، والتوجيه هنا له

غرض سام نبيل هو المحافظة على المستويات الاخلاقية للشعب عمومـا ، ولشبابه واطفاله على وجه الخصوص ، هاتين الفئتين اللتين هما اكثر الفئات تأثرا بما تسمعانه في الراديو وما تشاهدانه على شاشة التلفزيون او السينما . وبهذه المناسبة لا نستطيع ان نغفل الاثر الضار الذي تتركه في نفوس الاطفال والشبان ، البرامج او المسلسلات التي تعالج الجرائم وانواعها وطرق ارتكابها وتشرح تفصيلاتهـا . وينطبق هذا القول على جميع طرق الاتصـال الجماهيرية التي تصور مرتكبي الجرائم كأنهم ابطال ، وبذلـك تغري السذّج من المراهقين على تقليدهم والاقتداء بهم .

واما التوجيه في النواحي الثقافية فينبغي ان يتم بطريقة لا يحس معـهـا الجمهور بانه مساق للسير في اتجاه ثقافي معين، وانما يجب ان تتاح لكل فرد حرية الاختيار بين البرامج الثقافية المتعددة والمتنوعة الاشكال والمضامين، بمقتضى مستواه التعليمي ومداركه الذهنية واحتياجاته الى المعرفة ومدى عمق احساساته بالتجارب التي مر بهـا الانسان على مدى العصور والاجيال .

وهناك نقطة اخرى لا بد ان نشير اليها ، وهي خاصة بالتعـارض بين الفن الصحيح وبين وسائل الدعـاية الموجهة . ان الكاتب الجيد الذي يكتب للراديو او للتلفزيون او السينما لا بد ان يستبعد طريقة الاخبار المباشر او الدعاية الصريحة ، لانها تتنـافى مع اهم مبدأ من مبادىء الفن وهو مبدأ الايحاء غير المباشر ، ومن المسلم به ان طريقة التقرير لا تنتج فناً وانما قد تعبر عن تجربة ذاتية. ويقفز الى ذهننا في هذا المجال ما قاله ستانسلافسكي المخرج والممثل الروسي الكبير خاصاً بموضوع الفن والدعاية : « الدعـاية والفن ضدان لا يتفقان ، والفن الحقيقي يشحب لونه اذا استغلته الميول والمآرب والافكار التي لا صلة للفن بها » .

والخلاصة ان اجهزة الاعلام المختلفة عليها ان تصور واقع شعبنا العربي وتتغلغل في حياته ، وتعبر عن امـانيه وتطلعـاته ، وتأخذ بيده في محاولات نهوضه وانطلاقه ، ولا تتوانى او تتواكل عن النهوض بمستواه في كافة النواحي . وهي اذ تفعل كل ذلك يجب ان تتخذ منه موقف الزميل والرفيق والصديق ، لا موقف الواعظ او المرشد او النـاصح . وينبغي ان توجهه في رفق ولين ، في مواربة ودوران ، في حذق وذكاء وحصافة ، دون ان تفقد شيئاً من القيم الجمالية والفنية التي تتميز بها جميع البرامج الناجحة في اجهزة الاعلام في كافة انحاء العالم .